

مدرسة الحوليات ودورها في الكتابات والمناهج التاريخية

The Annales school and its role in historical writings

د.ة: صليحة بوزيد

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

البريد الإلكتروني: bouzid.Saliha@yahoo.com

تاريخ النشر: 2021 /01/05

تاريخ القبول: 2020 /09/12

تاريخ الاستلام: 2020 /08/28

الملخص:

غيرت مدرسة الحوليات تصور المؤرخين من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات، ومن البحث في التاريخ السياسي والعسكري إلى البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والذهنيات، ثم إن هذه المدرسة استطاعت على مدى ثمانية عقود أن تتكيف معرفيا مع المنعطقات الاستيمولوجية التي عرفتھا العلوم الاجتماعية خاصة في القرن العشرين، و ذلك بالقدرة على صياغة المفاهيم وإعادة صياغتها وتحديثها وإيجاد مخارج للأزمات التي عرفتھا الكتابة التاريخية، كما سعت إلى إنتاج أبحاث ودراسات متميزة بتوظيف مفاهيم وأدوات مستعارة من علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة . وبالتالي تأثر التاريخ بالمناهج والنظريات المتداولة في شتى العلوم، وكانت الغاية هي الانسلاخ من الكتابة التاريخية التقليدية للتاريخ ودراسة الإنسان والمجتمع بكل أبعادهما، وفي كل محطتهما التاريخية دراسة علمية تجريبية وموضوعية على غرار الدراسات التي تتم في العلوم كالفيزياء والرياضيات.

من أشهر المؤرخين لهذه المدرسة نجد مارك بلوك، لوسيان فيفر، جاك لوغوف وفيرناند بروديل الذين أصدروا مجلة الحوليات .

نهدف من خلال هذه المداخلة إلى إبراز دور مدرسة الحوليات في الكتابة والمناهج التاريخية، وأهمية التأثير الألماني في الفكر التاريخي الفرنسي من خلال المدرسة المنهجية وتأسيس المجلة التاريخية، وكذلك إبراز أهمية الفلسفة الفرنسية في عصر التنوير التي مزجت بين الفلسفة والتاريخ والجغرافية.

Abstract

The Annales School changed the historians' perception from research in events to research in structures, and from research in political and military history to research in social and economic history and mentalities, then this school was able over eight decades to cognitively adapt to the epistemological turns that social science has known in the century The twentieth, with the ability to formulate concepts, reformulate and define them, and find exits to crises in historical writing. It also sought to produce distinguished research and studies by employing concepts and tools borrowed from sociology, economics, and politics. Consequently, history was influenced by the method and theories circulating in various sciences, and the purpose was to break away from the traditional historical writing of history and to study man and society in all their dimensions, and in all their historical stations an empirical and objective scientific study similar to the studies carried out in sciences such as physics and mathematics. Marc Bloch, Lucien Febvre, Jacques Le Goff and Fernand Braudel who published the Annales books. Through this intervention we aim to highlight the role of the Annales School in writing and historical method, and the importance of German influence in French historical thought The school of methodology and the establishment of the historical magazine, as well as highlighting the importance of French philosophy in the Enlightenment that blended philosophy, history and geography.

Keywords : the Annales School ; Marc Bloch ; Fernand Braudel social and economic history; historical writing

مقدمة

يشكل الإشكال المنهجي أحد القضايا المهمة التي استأثر اهتمام العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى حد أن ما ميز بين مدرسة وآخر هو ما شكل خصوصية المنهجية، وأمام الانغلاق المنهجي لبعض المدارس الفكرية، سعت دائما مدارس أخرى إلى تحقيق انفتاحا منهجيا يتسم بالمرونة وكانت مدرسة الحوليات التاريخية من المدارس التي سعت إلى بلورة رؤية لا تنتمي إلى مجال واحد بل إلى مجالات عدة ناسفة بذلك كل انغلاق منهجي.

سنحاول ضمن هذا العرض أن نجيب على مجموعة من الإشكاليات المتعلقة بالسياق التاريخي الذي برزت من خلالها مدرسة الحوليات، أهم أفكارها و علاقاتها بالمدارس و النظريات التاريخية و دورها في الاتجاهات الحديثة و في الكتابة التاريخية.

فيإلى أي مدى أسهمت مدرسة الحوليات في التأقلم مع المستجدات في العلوم الإنسانية وبلورة مناهج متجددة تعيد قراءة الوثائق بأنساق جديدة تختلف نسبيا عن المدارس السابقة في قراءة التاريخ وتدرسه

وكتابتة؟¹

اعتمدنا في طرحنا على المنهج التاريخي الوصفي القائم على

-1 تعريف بالمدرسة

إن مدرسة الحوليات ليست كيانا واحداً، بل عرفت إيديولوجيات كثيرة، منهم المسيحي المحافظ والماركسي اليساري، وعليه عرفت المدرسة ثلاث أجيال مختلفة منها الجيل المؤسس أبرزهم مارك بلوك ولوسيان فيبر ثم جيل فرناند بروديل وأخيراً جيل جاك لوغوف.

تشكلت مدرسة الحوليات في فترة الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929م، كما أن مجلة الحوليات حملت أسم " حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي دليل على سبب نشأتها. كانت محاولة إيجاد حلول اقتصادية للمجتمعات الأوروبية في ظل الأزمة، كما أن رفض، يقول جاك لوغوف " ليس من باب الصدفة أن تنشأ مجلة الحوليات سنة 1929م، و هي سنة اندلاع الأزمة العالمية الكبرى"¹.

لقد تم رفض الحدث و الفرد و السرد من طرف الحوليات التي انتقلت إلى استثمار مواضيع جديدة والتي لخصها بول ريكو في عبارة " الواقعة الاجتماعية الشاملة" **fait social Total** مستعيراً هذا التعبير من

السيوسولوجي مارسيل مُوس، فموضوع ماهو اجتماعي أصبح محددًا أساساً لهوية الحوليات و أضحي المفضل في اسطوغرافية مؤرخيه.²

1.1 السياق التاريخي لظهور مدرسة الحوليات :

كانت الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر تعتمد على مرتكزات وأسس المدرسة المنهجية الوضعانية التي تقوم على فكرة أساسية مفادها " لا تاريخ بدون وثيقة" ذات الطابع السياسي و الدبلوماسي و العسكري على اعتبار أن القرن التاسع عشر كان قرن الوثائق بامتياز، كما طغى أسلوب الرواية و السرد السطحي للأحداث دون تمحيص ولا تدقيق.

شكلت أفكار كل من المؤرخ جول ميشلي³ والفيلسوف هنري بير رافد أساسيا من الروافد التي غذت مدرسة الحوليات منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى تأثير السيوسولوجيا الدوركايمية⁴ محددًا في نشأة هذه المدرسة ، حيث اثروا في مدرسة الحوليات بشكل أساسي باعتراف مؤسسي المجلة الأوائل وهما بلوك و فيفر فالمدرسة الدوركهايمية في علم الاجتماع التي جعلت غاية لها دراسة المجتمع، إن دوركايم سعى أن يكون علم الاجتماع علما محوريا و المؤرخ يكون مجرد جامع للرحيق الذي يصنع منه عالم الاجتماع عسلا، و هذا ما سعت إليه الحوليات كذلك، يقول مارك بلوك معترفا بمديونته لدوركهايم " لقد علمنا دوركهايم أن نحلل بمزيد من العمق و أن نعصر المسائل عصرًا".⁵

تأثرت مدرسة الحوليات ببعض المدارس الجغرافية، على رأسهم المدرسة الجغرافية الفيديالية نسبة لفيديال دو لابلاش هذه المدرسة التي كانت تقترح مقارنة شمولية لتحليل الواقع الاجتماعي القائم على أساس علاقة جدلية مزدوجة بين الزمن و المجال و بين الجماعات البشرية و الوسط الطبيعي.⁶

كان ميشلي قد عبر في كتاباته عن قصور الكتابة التاريخية بطريقة تنبأ بمنهج مؤرخي الحوليات، فقد وصف المنهج التاريخي بالضعف ماديا و روحيا لأنه يتكلم عن الأجناس و يهمل العادات و الأرض من الناحية المادية، أما روحيا فإن التاريخ يهتم بالقوانين السياسية و لا يهتم بالأفكار و الطبائع.⁷

أما البديل المنهجي الذي اقترحه فقد جمع بين الاتجاهين اللذان سادا في عصره و هما الاتجاه السردى الحي الغني بالصور الجمالية، و الاتجاه الفلسفي و هاجسه المتمثل في فهم طبيعة الحكم و حالة المجتمع و اثر الدين، لهذا فقد وجه اهتمامه إلى الطبقة الكادحة و المعدومين الذين عملوا بقوة و صدق دون أن يهتم بهم أحد أو كما يقول " التاريخ من الأسفل " .

لقد كتب ميشلي بحس أدبي رومانسي، فقد كانت كتاباته لا تخلوا من الصيغ الأدبية الجميلة و الإستعارات البديعية، حيث قال " التاريخ مثل الرواية " ، لكن يبقى انجازه الأعظم هو تحديد " مفهوم النهضة " الذي ابتكره خلال القرن التاسع عشر. لتصبح النهضة حقبة تاريخية قائمة الذات تتوفر على مقومات التطور في مسار التاريخ الأوروبي.

هذا هو برنامج مدرسة الحوليات الذي رسمه ميشلي قبل نشأة هذه المدرسة بحوالي مائة سنة ، تاريخ المجتمع ، تاريخ الإحساس، حيث أخذ يعين الاعتبار جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية و الثقافية، و هذا ليس غريبا أن يُفتن به رواد مدرسة الحوليات طيلة القرن العشرين و من أبرزهم لوسيان فيفر . افتقد منهج ميشلي لدقة المصدر وقلة الصرامة المنهجية وهو ما يفسر الانتقادات التي تعرض إليها، و هذا ما دفع بعض المنتقدين إلى القول بأن " التاريخ ليس مدرسة للأخلاق ". ومن الشخصيات البارزة التي أثرت تأثيرا مباشرا على الجيل الأول من مدرسة الحوليات شخصية هنري بير⁸، Henri Berr، حيث ساهم في تخصيب المقاربة التاريخية من خلال التشديد على أهمية التركيب في فهم التاريخ.

و قد ميز بين فلسفة التاريخ و التركيب التاريخي، و يظهر جليا في أطروحته موسومة " تركيب المعارف و التاريخ " سنة 1898 ، حيث كرس جهودا جبارة من أجل الجمع بين عمل الفلاسفة و المؤرخين ، كما أنه أنشأ مجلة حملت عنوان " مجلة التركيب التاريخي " التي أنشأها سنة 1900 م ، هذه المجلة التي تولدت منها مجلات أخرى أبرزها مجلة " حوليات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي"⁹ استطاع بير أن يجمع حوله عددا من الباحثين في مختلف العلوم الإنسانية و الاجتماعية، حيث نادى بضرورة الخروج من حالة الاحتباس التي يعاني منها البحث التاريخي بتشريح طبيعة مشاكل هذا البحث و فتح المجال أمام التعدد المعرفي.

لقد لقيت نداءات هنري بير استجابة لدى مجموعة من المؤرخين الشباب، و في مقدمتهم لوسيان فيفر الذي يعتبر المؤرخ القريب جدا من هذا الفيلسوف، إذ يستحيل ذكر أعمال بير من دون إشراك اسم لوسيان فيفر، حيث أسهم في مجلة (التركيب التاريخي) (1905 - 1937) و بقي بعد تأسيس مجلة الحوليات ، استفاد فيفر من شبكة العلاقات التي شيدها بير من خلال مجلته المذكورة كما تأثر كل من مارك بلوك (بلوخ) و لوسيان فيفر بالمؤرخ هنري بيران¹⁰ ، حيث كان لوسيان فيفر يعترم اقتراحه مديرا للمجلة العالمية ، كما وجد الإلهام في منهج التاريخ المقارن معجبين في هذا المجال بطريقة بيران كم خلال مداخلته سنة 1923 تحت عنوان " المنهج المقارن في التاريخ"¹¹ .

2.1 نشأة مدرسة الحوليات :

نتج عن تحول مزدوج بظهور مدرسة الحوليات ، الفترة الأولى هي فترة الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)، و تطورت العلوم الاجتماعية و تأسست المدرسة عندما بعث لوسيان فيفر و مارك بلوك مجلة الحوليات في ستراسبورغ عام 1929 ، و كانت دوافع ذلك عديدة منها :

1. اخراج التاريخ من بؤرة العادات القديمة و تجريده من الانغلاق على ذاته.
2. دفع البحث في مجالين يكاد يكون معييا كليا من طرف التاريخ التقليدي و هو التاريخ الاقتصادي الاجتماعي، في حين تقدم فيه الألمان و الإنجليز بشكل كبير .

تزامن إنشاء مجلة الحوليات سنة 1929 باندلاع الأزمة الاقتصادية العالمية، هذا ما ذكره داك لوغوف في كتابه¹²، ويضيف فرانسوا دوس في كتابه " التاريخ المفتت"¹³ " أن جاك لوغوف لم يكن مخطأ في سبب الإنشاء كان مرتبطا بالأزمة الاقتصادية ، بالرغم من أن الأزمة ظهرت في أكتوبر 1929 م ، في حين أن المجلة صدرت في جانفي 1929 م ، و تعود كمشروع إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة سنة 1918 م، و يؤكد دوس أن بعض القرارات الاقتصادية قد أثرت في المدرسة، و طغت على العشرينيات من القرن العشرين، من بينها إقرار لينين عام 1921 م عن السياسة الاقتصادية الجديدة في روسيا " الاشتراكية " ، كما طغت مسألة التعويضات الخاصة بالحرب، و الذي كان مرتبطا بجانبه الاقتصادي، كما أن المشروع الاقتصادي الذي تبناه روزفلت في انتخابه عام 1932 م و انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا أثر في المدرسة.¹⁴

ولم تصبح مجلة الحوليات ذات سمعة إلا بالأزمة الاقتصادية، بل كانت هذه الأزمة أساس تساؤلات جديدة تعيد تقسيم ما هو اقتصادي و اجتماعي في ظروف كان العالم الأوروبي غارقا في انخفاض قيمة النقد و الركود الاقتصادي و البطالة، و في هذه الظروف التي قوي فيها الطلب من أجل الفهم و التصرف ، فإن مجلة الحوليات حملت عنوان " حوليات في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي Annales d'histoire économique et sociale " ، تجيب دائما على أسئلة لإيجاد الحلول الاقتصادية ، و بذلك حولت نظرة كما كانت من نظرة سياسية نحو ما هو اقتصادي¹⁵ .

الجيل الأول للمدرسة الحوليات (مدرسة ستراسبورغ) :

مع نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين ظهر عدة مؤرخون من أبرزهم مارك بلوك و لوسيان فيفر ، وقد نقل هذان المؤرخان التاريخ من البحث في الأحداث إلى البحث في البنات، كما عملا على فتح

أعين المؤرخين لمصادر بحثية أخرى مادية وغير مادية مثل النقود القديمة و التبونيميا و الفلكلور و الرواية الشفهية و غيرها.

و قد ظهرت هذه الأفكار عن طريق صدور مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، الذي صدر العدد الأول منها عام 1929 م تحت إشرافهما و بالتعاون مع علماء مختصين في علم الاجتماع و الجغرافيا و الاقتصاد، كما ظهرت كتب ذات طبيعة منهجية بينت إمكانية الاستفادة من التاريخ و من رصيد العلوم الاجتماعية وبالأخص كتاب " معارك من أجل التاريخ " للوسيان فيفر الذي تضمن مقالات منهجيته المنشورة منذ عام 1906 م وكتاب " صنعة المؤرخ " لمارك بلوك عام 1941 الذي يعد ثورة منهجية ضد الانغلاق التخصصي .

وينتمي هذان المؤرخان إلى جامعة ستراسبورغ التي عيننا بها في نفس السنة عام 1919م، هذه الجامعة التي كانت معقلا للواجهة العلمية الألمان، و هناك بلور الرجلان مشروع مجلة الحوليات ليكتمل هام 1929 بمجلة الحوليات، التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي، و الذي شارك فيه مؤرخون مشتغلون في العلوم الاجتماعية من مختلف جامعات العالم.

كما كان دعم شارل إدموند بيرام بجامعة ستراسبورغ دورا كبيرا في بروز مدرسة الحوليات، كما أن الجامعة نفسها بمختلف التخصصات يجتمعون كل يوم السبت بعد الظهر لمناقشة ومناظرة عدة قضايا ابتداء من جانفي 1920 . و هذا ما أسهم في بلورة هذه المدرسة، و اعتنت طوال القرن العشرين بالريادة في المفاهيم التي أصبح يتوفر عليها المؤرخ ، و بهذا أعلنت مدرسة الحوليات تمردا على التاريخ التقليدي الذي أتعبته المناهج البالية، والملاحظ أن العدد الأول من مجلة الحوليات ، والتي حظي بها التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي اهتماما واسعا، كما كان الإطار الجغرافي واسعا، حيث شمل أوروبا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا الشمالية والهند والصين واليابان. ومن الموضوعات التي طرحت كانت تاريخ القرى والبنيات العقارية والزراعية، تاريخ المدن و الموانئ، تاريخ الصناعة و التجارة و وسائل النقل، تاريخ النقود الأجور و الأسعار.

و في عام 1946 تغير اسم المجلة إلى " حوليات اقتصاديات ، مجتمعات ، حضارات " ، خصص لوسيان فيفر بعد وفاة مارك بلوك خلال الحرب العالمية الثانية معدوما من طرف النازيين، و فتح نقاشا أكثر عمقا حول التاريخ سماه " جدالات و عراكات " ، و من أشهر ما نشر فيها مقال كتبه فيرناند بروديل الشهير " التاريخ و العلوم الاجتماعية " الأمد الطويل .

إن ما ميز مارك بلوك الذي يعتبر علامة من العلامات البارزة في البحث التاريخي خلال القرن العشرين أنه كان شديد الانتقاد للنظام التعليمي الفرنسي، و على مستوى البحث و الكتابة، انصب فكر بلوك في ثلاث قضايا السؤال ، التركيب و المقارنة ، في هذا المنظور يظهر مدى تأثير هنري بير و دوركهيم جليا .

❖ السؤال لاستنطاق الوثائق .

❖ التركيب لتجاوز التفاصيل و توليد الأفكار

❖ المقارنة لتجاوز التوصيف و بلوغ درجة التمييز.

كما كان يرى بلوك أن الوثائق حتى و ان كانت خالية من كل لبس لا تتكلم إلا إذا أحسن المؤرخ استنطاقها، و تلك هي الضرورة الأولى لكل بحث تاريخي سليم. كما أوضح بلوك أهمية المنهج المقارن في الدراسات التاريخية، فكل مؤلفاته كانت مفعمة بهذا المنهج، حيث أن كتاباته حافظت على المصدقية إلى اليوم، و هو نموذج حقيقي للكتابة التاريخية على مستوى الفهم و التعبير ، حيث استطاع بمنظوره في سياق المقارنة شملت بلدان فرنسا ، انجلترا و ألمانيا .

لقد مارس مارك بلوك لفضل منهجيته وصرامته النقدية في تناول الموضوعات تأثيرا كبيرا على الطلاب والباحثين الذين حثهم على تعلم اللغة الألمانية، و النهل من الفكر الألماني لتوسيع مداركهم التاريخية، فظهر في الخمسينيات والستينات من القرن الماضي مؤرخين مختصين أمثال روبرت بوتريش وجورج دوبي وإيمانويل لوروا، لا دوري وغيرهم ، حيث صنع هؤلاء من العصر الوسيط الأوروبي مجالا معرفيا قائما بذاته من حيث التصور المنهجي و التعقيب الزمني و التناول الأرشيفي.

أما لوسيان فيفر فقد جعل من التاريخ دراسة منجزة بطريقة علمية ، أي يخضع فيها للبحث التاريخي من طرح للأسئلة و صياغة الفرضيات ، و هذا ما يؤكد على مدى انسجام مؤرخي الحوليات مع أفكار العلماء الفلاسفة ، ليس هذا فقط ، بل زادت الصلة بالمجال الاجتماعي و الاقتصادي، و الجغرافيا و علم الاجتماع ، و قد كان كتاب فيفر درس في التناهج ، درس في التاريخ و الجغرافيا و علم الاجتماع، حيث وضع علاقة وطيدة بين المجال و المجتمع متأثرا برائد الجغرافيا الفرنسي فيدال دولابلاش ، حيث أصبح البعد الجغرافي في مقارنة لوسيان فيفر التاريخية حاضرا منذ أن أنجز أطروحته الجامعية عام 1911 م ، حيث جعل من كل منطقة جغرافية شخصية تاريخية ، و يتعلق الأمر بمنطقة الفرانس كونتي شرق فرنسا خلال القرن السادس عشر، في تحليل للصراع الدائر بين النبلاء و البورجوازية. و قد واصل لوسيان فيفر انفتاحه على العلوم ، حيث تأثر بعلم

النفس الاجتماعي ليخوض غمار الكتابة في هذا المجال، و يظهر ذلك من خلال كتابه " مشكلة الإلحاد في القرن السادس عشر من هلاله ديانة فرانسوا رابلي .

و في الأخير يمكننا القول أن مارك بلوك و لوسيان فيفر قد استطاعا رفقة مجموعة من المؤرخين الشباب و المخضرمين فرض وجود تيار اسطوغرافي مجددا في الساحة الجامعية، وفق منهج جديد في البحث و الكتابة التاريخية، كما أصبح لعالم الاجتماع و الجغرافي مكانة محترمة بعضل هذه المدرسة، خاصة بعد تراجع نفوذهم بعد الحرب العالمية الثانية عقب وفاة أبويهم الروحانيين إيمل دوركايم و فيدال دولابلاش

2. مدرسة الحوليات و الجيل الثاني (فيرناند بروديل) :

كانت مدرسة ستراسبورج قد بلغت درجة عالية من النضج مكنتها من تأكيد حضورها على الساحة الأوروبية و الدولية، و كان الجيل الثاني الذي جسده فيرناند بروديل¹⁶ بامتياز ، حيث جعل هذه المدرسة تشع إشعاعا عالميا في ظرفية كانت فيها العلوم الإنسانية و الاجتماعية قد بلغت درجة عالية من الانتشار و التأثير داخل الجامعة و خارجها

و قد استطاع بروديل أن يوسع مساحة التناهي بالحوار مع المقولات و المفاهيم الرائجة في العلوم الاجتماعية ، لا سيما الجغرافيا و الاقتصاد و علم الاجتماع، و أن يبتكر تصورا جديدا للتاريخ يستند إلى تعدد الأزمنة كمسلم من المفاهيم لفهم حركة التاريخ من البنيات أو الزمن الطويل إلى الظرفيات أو الزمن الدوري أو الزمن القصير، و يظهر ذلك جليا في أطروحتة " الحوض المتوسط و العالم المتوسط " في عهد فيليب الثاني ، حيث أعطى أهمية خاصة للزمن الطويل باعتباره مفهوما مركزيا من شأنه فهم الواقع الاجتماعي الاقتصادي، و حيوية التناهي الذي دافع عنه بروديل لفترة قد تزامنت مع الموجة الفكرية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية و التي غلب عليها التحليل البنوي.¹⁷

اعتمد بروديل في منهجه على تفكيك التاريخ ضمن ثلاث مستويات متدرجة . زمني جغرافي و زمني اجتماعي و زمني فردي، و لذلك يظهر عمله ضمن البحث في التاريخ الشامل، حيث يشكل هذا التصور ثورة في هندسة التاريخ والذي شهد على ذلك معظم المؤرخين الاقتصاديين و الجغرافيين الذين قرأوا العمل ، وبعثه التصميم الجديد و الثوري " كما كان له شان كبير في الاسطوغرافيا العالمية ، حيث صارت المفاهيم البرودويلية أنموذجا للعديد من الباحثين في تناولتهم للتاريخ، بل و صار الكتاب الحوض المتوسط و العالم المتوسط من الكتب التاريخية الأكثر تميزا وتأثيرا في القرن العشرين.

جعل بروديل مفهوم الزمن الطويل في قلب العملية التاريخية ، فهو قعر التاريخ و مركز الجاذبية، و يرى بروديل أن التاريخ يتحرك ببطء ، و أن اختيار الزمن الطويل اختيار لعسق التاريخ ذاته، و أن الزمن الطويل هو تاريخ بنيات مادية وذهنية ضاربة في أعماق الماضي، و مستعصبة على التغيير. وتظهر هذه الرؤية الشاملة التي تتخذ من الزمن الطويل منظورا رئيسيا لفهم التاريخ في كتابه الضخم " الحضارة المادية " ، فقد أكسبت هذه الرؤية الكتاب بعدا عالميا باعتماد مقارنة بين أوروبا و العوالم الأخر من آسيا إلى أمريكا مرورا بالعالم العربي و الإسلامي خلال المرحلة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر .

لقد اثر فيرناند بروديل على مجموعة عريضة من الباحثين الذين استحضروا في أطروحاتهم ودراساتهم منهج بروديل و منهم : بيار ستوفي¹⁸ و فريدريك مورو¹⁹ اللذان اتخذا من المحيط الأطلسي مجالاً للدراسة. و امتد تأثير بروديل إلى ما وراء المحيط الأطلسي ، ففي جامعة ساوباولو تأسس معهد فرناند بروديل للاقتصاد العالمي هام 1987 م ، و مركز فيرناند بروديل لدراسة تاريخ الأنساق و الحضارات في نيويورك .²⁰ يمتلك جاك لوغوف رصيذا تاريخيا كبيرا ك منه متقفوا القرون الوسطى عام 1957 م ، حضارة الغرب الوسطى عام 1964 ، و أصبح بذلك مؤرخا مسموع الكلمة في أوساط المؤرخين و المثقفين ، و أصبح من المسيرين و المؤثرين في مجلة الحوليات ن حيث جمع عددا من المؤرخين ، كان له تأثير كبير في رسم معالم التاريخ الأنثروبولوجي و تأكيده على الساحة العلمية من خلال أعماله و من أبرزها " صناعة التاريخ ، و كتابه التاريخ الجديد 1978 م ، حيث استخدم لوغوف 1974 م .

2.1 الأنثروبولوجيا التاريخية :

حيث اهتم بعادات و سلوكيات و الفكر الفلسفي المهتم بتاريخ الأنساق الفكرية ، و علم النفس الاجتماعي ، و اقتحم لوغوف تاريخ الأحلام و المخيال من زاوية سوسولوجية (1971 – 1974 م)، و لهذا ابتكر لوغوف إشكاليات جديدة غزت ميادين البحث و التأليف و أثر و احتلت العقليات مكانة كبيرة و اقترن التاريخ الأنثروبولوجي بتاريخ العقليات لخصوبة هذا المفهوم و مرونته و فاعليته التفسيرية، فقد عوض هذا المنهج لإيجاد متنفس للاختناق الذي شهدته الأبحاث ذات الصلة بالتاريخ الاقتصادي فعوضت الطبائع .

لقد قلبت الأنثروبولوجيا نظام تفكير المؤرخ على أكثر من صعيد، إذ انتقل الاهتمام من مستوى البنات المادية إلى مستوى إشارات اللاواعية ، حيث يقول جاك لوغوف في مقال مرجعي تحت عنوان " العقليات " : " حيث انتقل من تاريخ ديمقراطي إلى تاريخ التصورات حول الموت، و من تاريخ الأفعال إلى

تاريخ الطقوس و الرموز. كما شدد لوغوف على أهمية المخيال ، و ذهب بعيدا في هذا التشديد إذ اعتبره محرفا تاريخيا فيقول : " بدون مخيال يبقى تاريخا منثورا." ²¹ .

و استطاع بروديل أن يرفع صدى الحوليات إلى القمة ليس فقط بأعماله التي ترجمت إلى عدة لغات، حيث أصبحت حجلة الحوليات مدرسة مؤسسة ذات صيت عالمي، حيث أصبحت مجلة الحوليات الأكثر تأثيرا في ساحة البحث التاريخي في العالم، كما أصبح للمؤرخين مؤسسة جامعية خاصة هي مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس اعتبرها المهتمون بتاريخ الحوليات تجربة فريدة العالم الغربي.

التاريخ الجديد أو التاريخ الأنتروبولوجي الجيل الثالث لمدرسة الحوليات (جاك لوغوف)

أخذت مدرسة الحوليات بواسطة الجيل الثالث من المؤرخين خلال السبعينيات من القرن العشرين وجهة جديدة بالقياس إلى الصورة التي رسمها فرديناند بروديل خلال الخمسينيات و الستينات، و التي ارتبطت بالتاريخ الشامل، و هذه الوجهة هي التاريخ الأنتروبولوجي الذي قاد جاك لوغوف في سياق ما يعرف بالتاريخ الجديد ²² ، حيث انتقلت الكتابة التاريخية من البحث في حياة الناس من زاوية الكم و الرقم إلى ما هو كفي و رمزي، و بلغت بهم التجربة في البحث التاريخي درجة قصوى من التناهج من شدة الإفراط في استخدام مفاهيم العلم الاجتماعية الأخرى لاسيما الأنتروبولوجيا.

لقد استطاع جاك لوغوف بهذه المقاربات و الموضوعات المقاربة إلى حد الرد الأدبي و حتى من الكتابات الصحفية ممارسة نوع من الإغراء على القارئ بواسطة الهيمنة على دور النشر و الإعلام المرئي و المسموع و المكتوب، لكن هذا الإفراط في الانفتاح على الأنتروبولوجيا ظهر في 1980 على الساحة رؤية تقدمية اتجه هذا التاريخ الجديد. ²³

الخاتمة:

في عام 1993 غيرت المجلة اسمها و أصبحت تسمى التاريخ و العلوم الاجتماعية *histoire et sciences sociales*، وقد وقع إقحام كلمة التاريخ عن قصد في التسمية لتأكيد هوية علم التاريخ و المحافظة عليه من الضياع تحت ركام العلوم الاجتماعية و الإنسانية الأخرى. انتشرت أفكار و نظريات مدرسة الحوليات عبر سائر أوروبا و أمريكا، غير أن تأثيرها في العالم العربي بقي محدود و اقتصر على بعض المفكرين و المؤرخين العرب أمثال حسن مؤنس و عبد الله العروي.

و بالرغم من الهفوات و الانفتاح المفرط بقيت تأثير المدرسة شامخ بعد تجاوز ما يربوا عن ثمانين سنة، بل بقيت من أهم المدارس و أبرزها في حقل الكتابة التاريخية .
يمكن القول أن مدرسة الحوليات التي قدمت لعلم التاريخ خدمات جليلة لا ينكرها أحد، و قد ساهمت في إنشاء صرح عالمي ، و إن طول عمر المجلة راجع إلى الخط الذي دأبت عليه أغلب الأحيان منذ عام 1929 م و هو التطلع الدائم إلى التجديد و ممارسة النقد الذاتي و البراغماتية و الانفتاح المتواصل على التحولات الفكرية ، و اعتبارها علم التاريخ علم " البحث الإجماعي " .

الهوامش

- 1 جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2007، ص 85.
- 2 خالد طحطح، الكتابة التاريخية، ط1، دار توبقال للنشر، دار البيضاء، المغرب، 2012، ص 87.
- 3 : جول ميشلي: (1798 – 1874) : كان كاتباً و أديباً، نشأ في وسط عمالي، كان يساعد أباه و هو طفل صغير في أشغال الطباعة بمعمل لصناعة الورق في عهد نابليون، و قد كتب التاريخ بطابع اجتماعي من خلال ذكر طباعهم و سلوكاتهم و عاداتهم ، كتب ميشلي في مواضيع عدة مثل الفلاسفة، الأخلاق، الشعر و التاريخ.
- 4 : السوسولوجيا الدوركايمية : نسبة إلى عالم الاجتماع إميل دوركايم ، ففي نهاية القرن التاسع عشر برزت في فرنسا مواجهة بين علم الاجتماع و التاريخ، و دخل علماء الاجتماع في حوار لا يخلو من الاستفزاز مع المؤرخين الوضعانيين، و في مقدمتهم سينويوس و فوستيل دوكلانج.

5 Marc Bloch, Apologie pour l’histoire ou métier d’historien, Armand colin, Paris,1993,P27.

- 6 عادل الطاهري، الجابري و الحوليات، اللقاء المنهجي الصامت، بحث عام، صادر في 9 يناير 2017، ص 7.
- 7 : محمد جيدة ، المدارس التاريخية ، من المنهج إلى التناهج، دار الأمان ، الرباط ، المغرب ، 2019 ، ص 66 .
- 8: هنري بير Henri Berr: فيلسوف و أديب ، لديه سلسلة معروفة " تطور البشرية " التي ظهرت في جامعة استراسبورغ عام 1920 .

- 9 : جيبيدة ، المدارس التاريخية، المرجع السابق ، ص 71 .
- 10 : هنري بيران Henri Pirenne : أستاذ في جامعة استراسبورغ، مؤرخ متخصص في التاريخ الوسيط و الذي درس على يده جاك لوغوف و جورج دوبي و عالم الاجتماع كوريس هالفانكس ، و غابريال لوبرا المتخصص في اجتماعيات الأديان ن و عالم النفس شارل بلونديل و الجغرافي هنري بوليج. عرف بكتابه Histoire de l'Europe des invasions au XVII .
- 11 : جاك لوغوف ، التاريخ الجديد ، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2007 ، ص 85 .
- 12 : جاك لوغوف ، ، المرجع السابق، ص 86 .
- 13 : فرانسوا دوس ، التاريخ المفتت " ، ترجمة محمد الطاهر المنصوري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، جانفي ، بيروت 2009 ، ص 36 .
- 14 : دوس ، المرجع السابق ، ص 37 .
- 15 : محمد جيبيدة ، الكتابة التاريخية، التاريخ و العلوم الاجتماعية، التاريخ و الذاكرة، تاريخ العقليات، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2015، ص 61 .
- 16 : فيرناند بروديل : (1902 – 1985) ، أطروحته كانت تحت إشراف لوسيان فيفر و قدمها عام 1947 لمناقشة كتابه الحضارة الكادية و الاقتصاد و الرأسمالية الذي استغرق منه عشرين سنة من 1927 إلى 1947 . بدأ الكتاب عام 1952 ليصدر عام 1967 م المجلد الأول، أما المجلدين الثاني و الثالث عام 1979.
- وجيه الكوثراي، تاريخ التأريخ ، الاتجاهات- مدارس- مناهج، ط1، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، بيروت، 2012¹⁷، ص 229،
- 18 : بيار سوفي : 1954 ، له أطروحة ضخمة من 12 مجلدا حول أشبيلية و المحيط الأطلسي خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر الميلادي ، رصد البنات و الطرقيات الاقتصادية التي مارسها الإنسان.

- 19 : فريديريك مورو : استند على الأرشيف البرتغالي و البرازيلي ، قدم أطروحته عام 1957 م تحت عنوان " البرتغال و المحيط الأطلسي خلال القرن 17 " تناول فيها بنيات الاقتصاد و تعاقب طرقيات الرخاء و الانكماش .
- 20 الهادي التيمومي، المدارس التاريخية الحديثة، ط1، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، 2013، ص 183.
- 21 : محمد جببدة ، المرجع السابق ، ص 106 .
- 22 : جاك لوغوف : (1924 – 2014) المؤرخ الوسيط، أشهر مؤرخ فرنسي من مدرسة "الحوليات". له 48 مؤلفاً معظمها عن القرون الوسطى الأوروبية، منها :المثقفون في العصر الوسيط؛ حضارة الغرب القروسطي؛ من أجل عصر وسيط آخر؛ الإنسان القروسطي و غيرها .
- محمود عبد الواحد محمود، مؤرخو العصور الأوروبية، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 18، العدد 10، تشرين الثاني، 2011²³، ص 266.